

أصول ومقومات الإسلام وصناعة الإنسان

انظر حولك تلحظ أن الدولة القوية، والأمم العظيمة، والتقدم المادى، والسبق الحضارى، صانعه هو الإنسان الففرد هو حجر الزاوية، الذى يتربع على عرش الإنجاز والمكانة العالية، على أساس ما لديه من إمكانيات واستعدادات فطرية ومكتسبة يقتفى بها المنهج المحدد لمسار حياته، فقد أمده هذا المنهج باستحقاقات رفعت من شأنه فى نفسه وفى محيطه الاجتماعى وبين بنى وطنه وفى رحاب عالم يتأسس على المنافسة والغلب. وعلى هدى هذه الخصال الرفيعة فإنه يتمسك بهويته، ويدافع عن وطنه، ويتقدم بمجتمعه، ويرتقى بأتمته والعكس بالعكس، فالمجتمعات لا يقوم كيانها والدول لا يهاب بأسها، والأمم لا تحوز الريادة على غيرها، إذا كان الفرد فيها خاويًا من العقيدة، متجردًا عن المبدأ، خرب الضمير، مجردًا عن الإيمان برسالته فى هذه الحياة، وإنك لتدرك هذه الحقيقة الناصعة فى تفاوت أوضاع الأمم، على سند من مكانة الإنسان فيها، ومنزلة الفرد فى بنيانها.

وعى الإسلام قدر الإنسان، فحمله أمانة التكليف والمسئولية، والقيام برسالة الله الخالق الأعظم، وإعمار الأرض وفق المنهج الإلهى فى الكون، فغرسه فى نفسه وفى أعماق ضميره، وأمره باتباعه مع أقرانه، ومع الجماعة، وعبر الشعوب والعالم من حوله.

حظى الإنسان بهذه المكرمة، مع أنه ليس بالأقوى جسما، ولا بالأشد بأسا، ولا بالأعظم خلقا، وإنما لأنه تفضل على المخلوقات جميعا

بقيمة فضلى، برغم أن هناك من الأحياء والحيوانات ما يفوقه قوة ومهابة، وهناك من المخلوقات ما هو أكبر منه صنعة وقدرًا ألا ترى قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧]. ولأن صنع الله الذى أتقن كل شىء معتمد الحكمة، وخلو أفعاله عن العبث فإن ثمة ميزة ومكانة، جعلت الحق - سبحانه - يختار الإنسان لخلافته فى الأرض، فيكون هو سيدها، ويسخر له ما خلق عليها، ويجعله الأمر الناهى والمتصرف فى شئونها، القائم على أمرها، وذلك هو العقل الذى خصه الله به، يدرك ويميز، يبتكر ويبدع، يتفكر ويتدبر فى الخلق والخلائق من حوله، وتلك خاصية تفوق سائر الخصائص، ونعمة فوق سائر النعم، تكفل للإنسان أن يحقق المقصود الإلهى فى هذه العوالم المختلفة، وأن يكون حقيقًا بالسيادة، جديرًا بالمهمة المؤهل - أكثر من غيره - من الخلائق - على الاضطلاع بمسئوليتها وحمل الأمانة الإلهية، والتكليف السماوى، وإصلاح الدين والدنيا، والتوازن بين الروح والمادة، وبين أن يحيا لنفسه، وأن يهتم بالناس فى جماعته وبنى وطنه، ومحيطه الإنسانى.

ولسنا بحاجة إلى إيراد قيمة تفرد الإنسان بهذه الملكة العاقلة والمتبصرة التى تفتح للإنسان آفاقًا بغير حدود للعلا والتقدم، وترسم له معالم حياة سامقة عالية، نتيجة استخدام الشخص ما وهبه الله من العقل والتفكير، تلمس ذلك فى حفاوة القرآن بأصحاب العقل، وأرباب التفكير وأولى النهى وفى إشادة القرآن بمادة العقل والتفكير والنهى أكثر

من خمسين مرة، وهو مغزى حرى بالنفس المسلمة أن توظف هذه الملكة المتفردة، من أجل عبادته وشكره على نعمه وآلائه، وتنمية الكون، وإشاعة معاني الإنسانية والسلام فى أرجاء المعمورة، وحق للقرآن أن يؤكد على الدور الذى تقوم به النفس المؤمنة، فى مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩١].

وبهذه الملكة الواعية أقام الله تعالى الحجة على الملائكة، وحقانية الإنسان بالخلافة، فى تلك الآيات النورانية، التى استهلها بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰٓؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يٰٓأَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّآ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ [سورة البقرة: الآيات ٣٠ - ٣٣].

لكن الإسلام لم يترك الإنسان أسير عقله، يركن إليه دون الهداية الربانية تلك التى ترشد خطاه، وتوجهه إلى سواء الصراط، تكبح جماحه، وتنقذه من ظلامية الحيرة والتخبط والضلال بقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [سورة الشمس: الآيات:

٧ - ٨] وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [سورة البلد: الآية ١٠]،
 وقوله جل شأنه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا
 يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ
 وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ
 مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
 وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة المائدة: الآيات ١٥ - ١٦].

ولا يتأتى بلوغ هذه الهداية إلا بالركيزة الإيمانية، الإيمان بالله
 وبالمقدس الدينى الذى جمع به الإسلام، الأديان الإلهية وصهرها فى
 بوتقة الدين الجامع للمنهج الإلهى، والملائكة، والرسل والكتب المقدسة
 وبالقضاء خيره وشره، وبيوم الحساب والجزاء فى الحياة الآخرة.
 هذا الإيمان يحمله المسلم فى صدره، ويغرسه فى ضميره، ويشرق به
 عقله، وهو مركز فى فؤاده تشيع به جنبات نفسه وتنعكس على سلوكه،
 فتقوى عزيمته، ويملك إرادة فولاذية فيحقق بمجموع ذلك الاستخلاف
 الإلهى والتعايش البشرى، والتحضر الأسمى، والريادة والسبق العالمى.
 هذا المرتكز الإيمانى شيدت عليه النفس المسلمة، وقام عليه صرح
 الشخصية الإسلامية، فكان أن أيقنت بربها وقامت بحق الربوبية، ووثقت
 بنفسها، وانطلقت بذلك من نقطة الصفر إلى عمارة الكون، وإلى الآفاق
 الواسعة، فبلغت الريادة الخلقية والحضارية، على سند من الإيمان المقرون
 بالتقوى والعلم والعمل النافع والبناء الذى أسدى الكثير إلى العاملين.
 وهنا يبرز على الفور الواقع المعاش هذه الأيام بسبب عجز المسلم عن

المشاركة فى التنمية الحديثة، ناهيك عن الحيرة والتخبط فى مجمل حياته، وتخلفه عن ركب الإسهام فى إحراز التنمية وتعثره فى العطاء لدينه ومجتمعه ووطنه وأمته والعالم الذى يعيش فيه، تلك هى القضية، ونقطة الارتكاز. يتجلى ذلك يقينا فى حتمية إحياء الشخصية الإيمانية بالمفهوم الشامل القائم على الإيمان بربها ودينها، وبوطنها، وبإنسانيتها على النحو الذى تسلك به طريق العمل الجاد المثمر، لاستعادة نموذج المسلم الأول، المؤمن بالثوابت والمقدسات الدينية، الذى يضع مصلحة وطنه ومجتمعه وأمته نصب عينيه، ويتطلع بعزيمة صادقة إلى التصالح مع عالمه، والإسهام فى صنع التقدم الإنسانى، وتلك معضلة عصرية، يواجهها المسلم فى الحقبة الآنية والمستقبلية.

د. محمد الشحات الجندى

أستاذ الشريعة الإسلامية

كلية الحقوق - جامعة حلوان

عضو مجمع البحوث الإسلامية

الإسلام وقيمة الانتماء

يحار الإنسان بحق عندما يلتفت يميناً أو يساراً، فيجد هذا الكم الهائل من السلوكيات الخاطئة للعديد من الناس، فهذا يسبب الدين وذاك يغتاب الآخرين وثالث يروع المارة، ورابع غير مكترث بنظام الشارع وحق الطريق، فيكسر إشارات المرور ويعرض حياة الناس للخطر، أو يزهق أرواحهم، وآخر يعتدى على حرمة المال العام، أو يتحايل من أجل الغش في كل شيء، حتى في الامتحان والحصول على أعلى الدرجات بالباطل أو يتربح على حساب البسطاء والمعدومين بالمتاجرة في أقوات الناس، إلخ. هذه المظالم اليومية التي باتت مسلسلًا يتكرر على مرأى ومسمع ممن يتابعون حال الشارع في بلادنا دون مراعاة لحرمة الدين، ونظامه في الحياة، ومن غير اكتراث لكرامة الوطن، وحرص على صالح المجتمع، بل امتد هذا الخلل وذلك العوار إلى عدم الاهتمام بقضايا الأمة وما يدور فيها، فلا يدري الكثير منا، أو لا يبالي بهموم أمته، وما يحاك ضدها من مؤامرات، وما يجري على ثراها المقدس من مآسٍ، وصار مسلك الجمهور الأعظم من الناس لا يشغله إلا نفسه، ولا يفكر إلا في ذاته، ولا يعظم إلا مصلحته الخاصة، ويسعى بكل سبيل إلى الحصول على أكبر قدر من المكاسب، ولا عليه أن يأكل السحت أو ينغمس في الباطل أو يهتك قواعد الدين، أو يفتنت على حق الوطن، وأصول الاجتماع المنظم، حتى ليخيل للأسوياء في بعض الأحيان أن الاستقامة هي ضرب من الأمنى الكبار، وأن الاعتصام بحبل الدين صار حكاية لزمان مضى وعصر انقضى.

فلا سبيل لعودته ولا مطمع في استعادته في دنيا الناس، في ظل استفحال الفوضى الهدامة والأنايية المفرطة والأنايالية التي أصبحت شعارا يهيمن على تعامل الكثير مع أقرب الخلق إليهم، ناهيك عن سواهم من الأفراد، وحدث ولا حرج مع اغتيال قضايا الوطن والمجتمع والأمة. إن إشاعة هذا النمط من السلوكيات في مجتمع إسلامي، في الاعتداء على حق المؤمن بالمسيحية أو اليهودية، هو اعتداء صارخ على مقدسات الإسلام والمسيحية واليهودية وإخلال فج بخصوصية العلاقة التي تربط بين المؤمن وربّه، بحسبان أن الدين إنما يقيم العهد مع الله - جل شأنه - ويجعله في معيته، فيتخلق بأخلاق الصالحين، ويوفى بعهدده مع الخالق تعالى وينضبط في حله وترحاله وفي ممشاه وقعوده، وفي معاملاته مع نفسه وغيره، وفي عمله وفي سائر أحواله بما قرره الدين من أحكام، وبما أقامه من عدل ونظام لا يصلح المجتمع بدونه. إن أوليات التخلي عن تلك الأنماط الفاسدة من السلوك، هي أن يحيى المسلم عهده مع الله رب العالمين، وأن يخلص العمل ابتغاء مرضاته لا يبغي إلا وجهه ولا يطمع إلا في رضاه، ولا يخشى إلا هو، وأن يعتقد دوماً أنه لبنة في صرح مجتمع، ينصلح بصلاحه ويفسد بفساده، وأن حب الوطن من حب الله - سبحانه - وأن الواجب عليه أن يحرص على نفع أهله وبنى أمته، وأن ينغرس في أعماقه الانتماء إلى هذا الدين المتين الذي يهديه إلى الصراط المستقيم، وإلى الحرص القويم على صالح الجماعة والوطن والأمة، ومن ثم تكون هذه القيمة الإيمانية العليا مركوزة في نفسه، مترسخة في ضميره تجعله يجتهد بالعمل والبناء، وينتهى عن معاييب السلوك، وأن يقدر حق وطنه ويحرص غاية ما يكون الحرص على شئون ذويه والناس من حوله، فهذا هو الإسلام الحق أن يعيش

المسلم مع أهله وبنى وطنه وعموم أمته، يفرح لفرحهم، ويغتم لغمهم، امتثالاً لقول الرسول ﷺ: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»، وهو ما يقتضى الانخراط فى العمل الجاد والهادف، والمبادرة إلى كل ما يفيد الناس، وينفى الضرر عنهم. تلك هى شيمة المسلم الحق أن يصدق مع الله، وأن يوقر فى ضميره أنه محاسب ومسئول عن أقواله وأفعاله، وأن نتاج عمله صلاحاً أم فساداً يمتد إلى الناس ولا يقف عند شخصه، ولا يجوز أن يحتج بأنه يكفيه أن يقتصر على العبادة وحدها، فإنه بذلك يختزل الإسلام فى الصلاة وأداء الشعائر، ويعتقد أنه بصلاته وصيامه وحجه قد أخلص العبادة لله، فإنه إذا أدى ذلك، ولم يعبأ بحاجات الناس، ولم يبال بهمومهم، أو انشغل بنفسه عن سواه وحصره دنياه فى مصلحته فقط دون صالح الناس، وعاش لنفسه غير مستشعر معاناة الآخرين، لا يمد إليهم يد المعونة، ولا يأبه لعوزهم، فقد كذب بالدين وأحدث ثلثة فى مجتمع المسلمين بقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۙ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۚ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [سورة الماعون: الآيات: ١ - ٦].

فحرى بالمسلم وجدير به أن يحسن فهم دينه وأن يكون وقافاً عند حدوده، لا يعتدى عليها، ولا يتورط فى اقتراف أى منها، وأن يستشعر المسلم أن خلق دينه الحياء، وكفى به خلقاً، فإنه يكبح جماح النفس، ويروض تمرده وشططه وشطحاته، ويكفه عن المعاصى، ويجعله بمنأى عن الشرور والآثام، ويحث على الفضائل والأخلاق.

وما بال هؤلاء الذين يستبيحون لأنفسهم التعدى على حقوق الناس، والتقصير فى أداء واجباتهم تجاه المجتمع ونحو وطنهم وأمتهم بمظاهرتى كالاعتداء على حرمة الطريق وحق الوظيفة العامة، والسكينة المجتمعية وقيم الطهارة والشفافية والأمانة والجدية فى كل الشئون أن يفقهوا أنهم بهذا الصنيع قد انحرفوا عن الجادة وصاروا من أشرار الأمة ومن أراذل الناس، وحسبهم أنهم بذلك المسلك قد خانوا عهدهم مع الله تعالى، وإن صلوا وصاموا وحجوا، وفرطوا فى حق الله، وأجرموا فى حق المجتمع. لقد أحدثت هذه السلوكيات الضالة أكبر الأضرار بالوطن، ونعتت المجتمع الإسلامى بالنقيصة والتخلف، ووصمته بالانحراف والفساد، وحسبه أنه أجرم فى حق الجماعة وأثرى على حساب المهمشين والمكروبين والمحرومين، فضيع الأمانة، وتنكب عن الحق، وخلع ربة الانتماء والولاء للمجتمع والأمة.

إن واجب كل مسلم أن يستمسك بأهداب هذا الدين، وأن يجعل قدوته رسول الله فى عباداته ومعاملاته، وفى حركاته وسكناته، وفى أقواله وأفعاله وتقريراته، فقد نعته القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: الآية ٤]، ووصفته السيدة عائشة رضي الله عنها أنه: «كان خلقه القرآن»، فقد كان قرآنا يمشى على الأرض، فقد تعانق الواقع مع المثال فى السيرة والمسيرة المحمدية، وتربى الصحابة، وأجيال المسلمين فى عصور الإسلام الأولى، حتى كان المسلم أمة، مما جعل عمر يقول: «والله لروح مسلم أحب إلى مما حوت الروم»، لأنها تمثل المبادئ القرآنية التى تقوم على تجسيد الانتماء والولاء لله ولرسوله ولمجتمع المؤمنين وأيقن به وضحي من أجله، فكانت له الغلبة والنصر

بقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٦].

هذا الولاء تعددت دوائره، دائرة الإيمان بالإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا وحضارة، ودائرة الانتماء للمجتمع، والتعامل مع أفراده على أساس المودة والرحمة والتكافل، ودائرة الحرص على الوطن ومساندة المسلم لأخيه، سواء أكان أختا لك فى الدين أم شريكا لك فى الوطن، تلك الأخوة التى تقيم مجتمع المؤمنين، وتقوى ببناءه، وتقيم صرح مجتمع متماسك تختفى فيه الإحن والبغضاء، وتتوارى فيه آفات الأنانية والأثرة والجشع والغش، وتشيد علاقاته على سند من التعاطف والتضامن بما عبر عنه حديث رسول الله ﷺ «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» فما أجدر أن يستعيد هؤلاء النفر وهم كثير الذين نسوا أو تناسوا هذه القيمة الرفيعة أن تحيا فى نفوسهم، وأن يقوموا بترجمتها فى سلوكياتهم وتعاملهم مع ذويهم ومع غيرهم إيمانا بتعاليم دينهم، وقيامًا بحق وطنهم.

ذلك أن لكل مسلم رسالة فى هذا الكون هى العبادة الحقة لله تعالى، وإعمار الكون بتنميته على هدى من العدالة والفضيلة والكرامة لبنى وطنه وأمته وللإنسانية جمعاء، وبغير ذلك فإن المسلم لا يكون أهلا لحمل رسالة هذا الدين، بل سيكون فى مؤخرة الركب، وسيوصم بكل نقيصة، وهو الجرم الفادح فى حق الإسلام والوطن، فياليت قومى يعلمون!!!
